ISSN: 2706-6495

الاتساق والانسجام في النص القرآني

(الآيات: ٢٦٠–٢٦٥ من سورة البقرة نموذجا)

اعداد الباحث: منير بورد

طالب باحث بسلك الدكتوراه، مختبر الكتابات الأدبية واللسانية بالمغرب

المدرسة العليا للأساتذة – جامعة محمد الخامس بالرباط – المغرب

Email: mounir.b2009@gmail.com

ملخص

يسعى هذا المقال إلى دراسة النص القرآني في ضوء نظرية اللسانيات النصية، وذلك من خلال رصد مظاهر وتجليات الاتساق والانسجام باعتبارهما من المفاهيم المركزية التي تقوم عليها هذه النظرية؛ بحيث ستتجه العناية في المستوى الأول المتعلق بالاتساق إلى تحديد مختلف الأدوات الشكلية المساهمة في تحقيق التماسك النصي بين الأجزاء المشلكة للنص القرآني، بينما سيتجه الاهتمام في المستوى الثاني المرتبط بالانسجام إلى الوقوف على العلاقات الخفية التي تنظم النص في الذهن، بحيث إذا كان الاتساق يقف عند حدود البنية السطحية الظاهرية ممثلة في الوسائل اللغوية (الشكلية) التي تصل بين أجزاء الخطاب فإن الانسجام يتجاوز ذلك إلى الغوص في أعماق النص من خلال دراسة موضوعه وبنيته الكلية مستثمرا في ذلك الملابسات المقامية.

الكلمات المفاتيح: لسانيات النص، اتساق، انسجام، نص، بنية.

ISSN: 2706-6495

Abstract

This article aims to study the Quranic text in light of textual linguistics theory through examining the manifestations of cohesion and coherence because they are two of the major concepts that this theory stands on.

On one hand, relating to cohesion. We will focus on defining the different textual tools that contribute on making the parts of Quranic text cohesion.

On the other hand, relating to coherence. We will shed light on the invisible relations that organize the text in the mind; considering that if cohesion stands only on the limits of the surface structure (linguistic/textual tool) which link the parts of discourse. Then, coherence go deeper to study the text's object and its general structure through the context.

Key words: Textual linguistics, Cohesion, Coherence, Text, Structure

مقدمة

لقد عرف البحث اللساني تحولات كبيرة كانت وليدة إعادة النظر والبحث المستمرين سعيا للوصول إلى نظرية كلية للنص تعالج كل جوانبه، وتعد لسانيات النص من المقاربات المهمة التي عرفها البحث اللساني؛ فهي فرع معرفي جديد ظهر في النصف الثاني من الستينيات والنصف الأول من السبعينيات، يعنى بدراسة نسيج النص اتساقا وانسجاما وذلك من خلال وصفه في ضوء مستوياته اللغوية، الصرفية والتركيبية والدلالية والتداولية والبلاغية كما توصف الجمل حسب المدارس اللسانية، وعليه فلسانيات النص هي ذلك العلم الذي يهتم بدراسة النصوص باعتبارها وحدة لغوية كبرى تتألف من مجموعة من الجمل والفقرات والمقاطع والمتواليات المترابطة شكلا ودلالة ووظيفة، ضمن سياق تداولي وتواصلي معين. ويعتبر الاتساق والانسجام من المفاهيم المركزية في اللسانيات النصية، ويقصد عادة بالاتساق الكيفية التي تتماسك بها جمل النص من حيث العلاقات التركيبية والدلالية والمعجمية القائمة بين وحداته سواء أكانت مفردات أم جملا، وتنصرف العناية فيه إلى حروف العطف وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة والضمائر وحروف التفسير، وكل ما يقصد به الربط بين متواليات النص ووحداته، وتقوية الأسباب بين جمله، بينما يقصد بالانسجام مجموع العلاقات والروابط غير المتحققة لفظا بين وحدات نص ما، وتتطلب من المتلقي أن يشارك في بنائها بالاستناد إلى قدراته التأويلية وبتشغيل معلوماته ومعارفه، وتتجه العناية فيه إلى مجموعة من العناصر نذكر منها: البنية الكلية والسياق والمعرفة الخلفية.

وبناء على هذا سنحاول في هذا المقال رصد مظاهر وتجليات الاتساق والانسجام في النص القرآني (الآيات: ٢٦٠-265 من سورة البقرة)،

ISSN: 2706-6495

وقد اخترنا النص القرآني دون غيره من النصوص لسببين اثنين؛ أولهما لأنه أفصح النصوص العربية وأشدها تماسكا واتساقا، وما اتساقه وانسجامه إلا تجل من تجليات إعجازه، أما السبب الثاني فهو ما حظي به من اهتمام بالغ من لدن العلماء العرب؛ إذ كشفت طائفة من علماء القرآن والمفسرين عن مظاهر التماسك النصي في القرآن، وذهبوا إلى أنه يشكل كلا موحدا متآخذ الأطراف على سبيل تفصيل كل سورة لما أجمل في السورة التي قبلها، بل إن هناك من اعتبره لشدة تماسكه كالكلمة الواحدة، وهو أمر يجعل النص القرآني مجالا خصبا لرصد تجليات اللسانيات النصية وبيان أبعادها التجريبية؛ ذلك أن النص القرآني يزخر بالعديد من أدوات الاتساق التي تساهم في تماسكه الشكلي، وكذا بالعديد من آليات الانسجام التي تساهم في تماسكه الدلالي والموضوعاتي، وعليه فقد كان من الملائم اتخاذ النص القرآني متنا للدراسة والتحليل نظرا لهذه الاعتبارات من جهة ولأنه عماد الحضارة الإسلامية ومؤسسها من جهة ثانية.

أهداف البحث:

- تحليل النص القرآني في ضوء المبادئ النظرية التي تقوم عليها اللسانيات النصية؛
- رصد مظاهر اتساق النص القرآني من خلال الوقوف على مختلف الأدوات المساهمة في الربط بين أجزائه؛
- بيان مظاهر وتجليات انسجام النص القرآني بالوقوف على العلاقات الخفية التي تنظم النص وتولده.

١. مظاهر الاتساق في الآيات

إن الهدف من هذا المحور هو دراسة التعبير القرآني دراسة نصية تسعى للكشف عن أدوات اتساقه وطبيعة نظامه اللغوي المشكل للآيات للوصول إلى مضامينها ودلالاتها؛ إذ لا يقتصر أي نص كيفما كان نوعه على الجانب الدلالي فقط وإنما بالتعاضد والتكامل بين الشكل والدلالة.

ولاعتبارات منهجية سنهتم بدراسة اتساق المقطع القرآني في ثلاثة مستويات أساسية: المستوى التركيبي والمستوى الدلالي والمستوى المعجمي، وكان لزاما علينا أن نقوم بالتذكير بمفهوم كل مستوى وأهم أدواته قبل وضع الآيات على محك التجربة والتطبيق، على أن يبقى السؤال الأساسي المتحكم في هذا الجانب من المقال هو: ما هي أهم وسائل الاتساق النصي التي أسهمت في تماسك هذه الآيات؟

أ. الاتساق التركيبي

يتحقق الاتساق في هذا المستوى عن طريق مجموعة من الوسائل اللغوية، منها الوصل ويكون بأدوات الربط من حروف العطف والأسماء الموصولة وحروف التفسير أو ما يقوم مقامها مما يفيد الشرح أو ما يفيد التمثيل، وكل ما يقصد به الربط بين جمل النص وتقوية الأسباب بين وحداته. والربط في أبسط تعريفاته هو "اصطناع علاقة نحوية سياقية بين معنيين باستعمال واسطة تتمثل في أداة رابطة تدل على تلك العلاقة" (حميدة، ١٩٩٧، ص٤).

ويعد العطف من أهم أشكال الربط، هذا إن لم نقل إنه أهمها على الإطلاق؛ إذ كثر حضوره في التعبير القرآني إلى درجة أنك تجده في الآية الواحدة عدة مرات، ومن ثم فقد حظي باهتمام بالغ من لدن الدارسين،

ISSN: 2706-6495

بل إنه كان من بين المواضيع المشتركة بين النحاة والبلاغيين؛ فقد درسه النحاة تحت عنوان العطف ودرسه البلاغيون تحت عنوان الفصل والوصل، وقد عده النصانيون المحدثون وسيلة مستقلة من وسائل الاتساق.

وقد ميز الأزهر الزناد في كتابه "نسيج النص بحث فيما يكون به الملفوظ نصا" بين أنواع الربط، إذ يرى أن هناك ربطا خطيا بالأداة، وهو المتحقق بذكر إحدى أدوات الربط (الواو، الفاء، ثم...)، ثم هناك الربط الخطي التتابعي الذكري وقد أوضحه بقوله "والخطي هنا تعني التتابع في الزمان، وهو ربط بين الأحداث أو الحركات حسب تعاقبها على محور الزمن، حيث يوافق سرد الأحداث في النص تتاليها الكرونولوجي في الزمن الحقيقي أو الفزيائي" (الزناد، ١٩٩٣، ص ٤٦)، وهناك الربط الخطي المنطقي والمقصود به الربط "القائم على أساس السببية أي ربط السبب المحرك بنتيجته" (الزناد، ١٩٩٣، ص ٤٨).

وليس ثمة شك في أن آيات التعبير القرآني ترتبط عن طريق هذه الأدوات بل إننا نكاد نذهب جازمين إلى أن النص القرآني مجال خصب لرصد هذه الأدوات وبيان أثرها في تماسك أجزائه، وهكذا وبناء على ما تقدم سيتركز عملنا في المحور على إحصاء أدوات الربط الموجودة في الآيات ثم بيان دورها في تعالق مكونات النص، وذلك من خلال وصف البناء الشكلي للنص وأثره في تنامي دلالاته.

يلاحظ أن النص يعالج موضوع الإنفاق بحيث يتألف من صورتين أساسيتين، صورة الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله وابتغاء مرضاته وصورة من ينفق ماله رياء الناس، وفي مقابل كل صورة يورد التعبير القرآني تشبيها تمثيلا يروم البيان والإيضاح، وقد جاءت هذه الصور متعالقة أشد ما يكون التعالق، فما هي إذن أدوات الربط التي ساهمت في تماسك الآيات وتعالقها ؟

وللإجابة عن هذا السؤال نقترح أن نورد أولا جميع أدوات الربط الموجودة في الآيات في الجدول الآتي:

أداة الربط	عدد المرات	رقم الآية
"مثل"	٦ مرات	الآيات: ٢٦٠، ٢٦٣، ٢٦٤
حرف "الواو"	١٧ مرة	من الآية ٢٦٠ إلى الآية ٢٦٥
الاسم الموصول "الذي"	٤ مرات	الآيات: ٢٦٠، ٢٦١،٢٦٣، ٢٦٤
"ثم"	مرة واحدة	الآية: ٢٦١
حرف "الفاء"	٧ مرات	الآيات: ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥

يلاحظ من خلال هذا الجدول أن حرف العطف "الواو" تكرر بشكل ملحوظ في النص برمته، بل إنه يتكرر مرات عديدة في الآية الواحدة، ومن ثم فقد لعبت الواو دورا أساسيا في الربط بين مكونات النص وأجزائه، ففائدة العطف هنا هي وصل الكلام بعضه ببعض والإشراك بين المعطوف والمعطوف عليه في الحكم، والدخول معه في المعنى حتى يكون النص وحدة كبرى،

ISSN: 2706-6495

وتجدر الإشارة هنا إلى أن حرف "الواو" يختلف عن باقي حروف العطف الأخرى بحيث إن هذه الأخيرة "تفيد مع الإشراك معاني: مثل أن "الفاء" توجب الترتيب من غير تراخ و"ثم" توجبه مع تراخ، و"أو" تردد الفعل بين شيئين وتجعله لأحدهما لا بعينه (...) لكن الواو وليس للواو معنى سوى الإشراك في الحكم الذي يقتضيه الإعراب الذي أتبعت الثاني الأول، فإذا قلت (جاءني زيد وعمرو) لم تفد بالواو شيئا أكثر من إشراك عمرو في المجيء الذي أثبته لزيد والجمع بينه وبينه" (الجرجاني، ١٩٩٢، ص ٢٤٠).

وعلى ضوء هذه المعطيات يسهل – نسبيا – تتبع عمل أدوات الربط داخل النص القرآني وبيان دورها في الربط بين جمله وآياته وكذا أثرها في نمو دلالاته، وعليه يبدو أن الآية الأولى قد استهلت بأداة من أدوات التمثيل (مثل) إذ مثل تعالى حال المنفقين في سبيله بالحبة التي أنبتت سبع سنابل بحيث "لما كانت الحبة سببا أسند إليها الإنبات كما يسند إلى الأرض وإلى الماء، ومعنى إنباتها سبع سنابل، أن تخرج ساقا يتشعب منها سبع شعب لكل واحدة سنبلة" (الزمخشري، ٢٠٠٦، ص ٣٠٦)، وقد تم الربط في هذه الحالة عن طريق "الوصل الإضافي" بواسطة الأداتين "مثل" و"كمثل".

وقد اتصلت هذه الجملة بالتي بعدها (والله يضاعف لمن يشاء) عن طريق واو العطف وكذلك الأمر بالنسبة للجملة التالية (والله واسع عليم) فقد ارتبطت أجزاء هذه الآية بواسطة حرف العطف "الواو" الذي ساهم في وصل جملها، كما اتصلت هذه الآية بآية (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا يحزنون) عن طريق الاسم الموصول "الذين" العائد على فئة المؤمنين عامة والمنفقين في سبيل الله خاصة، حيث بين جل شأنه الإنفاق في سبيله بأن قال (ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى) وتفيد "ثم" من الناحية التركيبية الربط بين الجملتين، أما من الناحية الدلالية فمعناها "إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى، وأن تركهما خير من نفس الإنفاق" (الزمخشري، ٢٠٠٦، ص ٣٠٧) ، ويقصد بالمن "أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه" (الزمخشري، ٢٠٠٦، ص ٣٠٦) والأذى "أن يتطاول عليه بسبب ما أزال إليه" (الزمخشري، ٢٠٠٦، ص ٣٠٧)، وقد جمع التعبير بينهما بواسطة الواو للدلالة على أن الأمرين كليهما يبطل عمل المنفق ويحول بينه وبين مرضاة الله، وبهذا ميز تعالى الإنفاق ابتغاء مرضاته أي بدوام تناسي الإحسان وترك الاعتداد به سيما وأن "ثم" هنا استعيرت للدلالة على "دوام وجود فعل الترك وتراخي زمن بقائه" (الزمخشري، ٢٠٠٦، ص ٣٠٧) أي دوام ترك الامتنان ودوام تناسي الإحسان، "وعليه حمل قوله تعالى (ثم استقاموا) أي داموا على الاستقامة دواما متراخيا ممتد الأمد" (الزمخشري، ٢٠٠٦، ص ٣٠٧) وبه ثبت الأجر واستحق بدليل قوله تعالى (لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فهو نتيجة مباشرة لفعل الإنفاق إذ أورده مباشرة بعد الحديث عن ترك المن والأذى.

ويبدو أن هذه الآية وقعت مفصولة عن آية(قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى. والله غني حليم) والفصل هنا لا يعني تفكك الخطاب وإنما اتساقه، بحيث ارتبطت هذه الآية بالأولى ارتباطا معنويا على سبيل الإيضاح والبيان إذ يبين تعالى أن الرد الجميل والعفو عن السائل إذا وجد منه ما يثقل على المسؤول خير من صدقة يتبعها المن والأذى، وقد عطف عليها بواسطة الواو جملة (والله غني حليم) للدلالة على أنه تعالى غني ولا حاجة به إلى منفق يمن ويؤذي، وقد زاد التعبير القرآني الأمر بيانا وإيضاحا بأن دعا المؤمنين إلى عدم إبطال صدقاتهم بالمن والأذى كما هو الحال بالنسبة لمن ينفق ماله رياء الناس إذ يقول (كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر. فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا. لا يقدرون على شيء مما كسبوا. والله لا يهدي القوم الكافرين)،

ISSN: 2706-6495

وقد اتسقت أجزاء هذه الآية عن طريق ثلاثة عناصر أساسية؛ فأما الأول فهو كاف "كالذي" التي لعبت دور الربط بين الجملتين من جهة، ومن جهة ثانية "يجوز أن تكون هذه الكاف في محل النصب على الحال أي: لا تبطلوا صدقاتكم مماثلين الذي ينفق..." (الزمخشري، ٢٠٠٦، ص ٣٠٨)، في حين يتجلى العنصر الثاني في أداة التمثيل (مثله، كمثل) إذ وظفت لتمثيل النفقة رياء الناس بحجر أملس، أما العنصر الثالث فهو "الفاء" (فأصابه وابل فتركه صلدا) ومعلوم أن الفاء توجب الترتيب من غير تراخ، ومن ثم فقد وظفت لربط الصلة بين أجزاء هذا المشهد الذي يصور النفقة التي لا ينتفع بها بحجر عليه تراب وأصابه مطر فتركه أجرد نقيا، ومن جهة ثانية فقد وظفت "الفاء" للدلالة على السرعة في وقوع الحدث أو الترتب السريع للنتيجة، ويسمى هذا النوع من الربط بالربط الخطي التتابعي الذكري إذ جاءت الأحداث في الآية تبعا لتتاليها الكرونولوجي في الزمن الحقيقي، وإذا علمنا بأن الفاء توجب الترتيب من غير تراخ تبين لنا بأن أحداث هذه الآية جاءت على النحو الآتي:

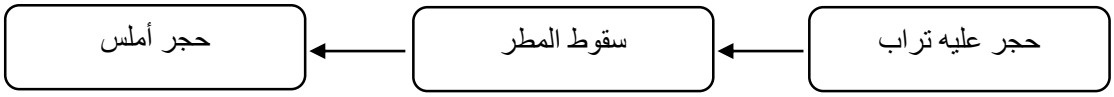

وهكذا يستمر التماسك والربط بين الآيات لتحقيق الاتساق بين الأجزاء حيث يمضي التعبير القرآني في ذكر الآيات وإحكام العلاقات بينها، وعليه لا يحتاج الأمر، بعد هذا الذي تقدم، إلى تأكيد تلاحم ما تبقى من الآيات وترابط العناصر اللاحقة بعضها ببعض وتعلقها بالسابقة لها.

وعلى هذا الأساس يظهر أن أدوات الربط لا يتوقف دورها عند الربط بين الكلمات المتجاورة، بل يتعداه إلى الربط بين الجمل والعبارات لتحقيق الاتساق النصي، كما يظهر بأن أدوات الربط تؤدي وظيفتين اثنتين؛ أولاهما تركيبية تتمثل في حفظ الصلة بين أجزاء التركيب والثانية دلالية تتجلى في بناء المعنى الذي تروم الآية التعبير عنه، غير أننا نلاحظ بأن أدوات الربط وحدها لا تسعفنا في بعض الأحيان في الكشف عن اتساق النص، إذ لابد من اللجوء إلى العلاقات الدلالية التي تجمع بين الآيات؛ ذلك أن بعض الآيات لشدة اتصالها تستغني عن الرابط الشكلي، ومن ثم وجب على المحلل البحث في أوجه المناسبة والاتصال بين الآيتين.

ب. الاتساق الدلالي

ويتحقق عن طريق الإحالة، والإحالة علاقة دلالية بين عنصر محيل وعنصر محال عليه، ومن العناصر اللغوية التي تملك خاصية الإحالة: الضمائر المتصلة والمنفصلة والمستترة والبارزة وأسماء الإشارة. وتعتبر الإحالة شكلا من أشكال التماسك اللفظي وهي من أهم الأدوات التي تحقق اتساق النص القرآني، ومن ثم فهي بمثابة الخطوة الأولى التي يقدم عليها الباحث لكشف البناء الدلالي للنص.

والعناصر الإحالية هي مجموعة من "الألفاظ لا تملك دلالة مستقلة بل تعود على عنصر أو عناصر أخرى مذكورة في أجزاء أخرى من الخطاب فشرط وجودها هو النص" (الزناد، ١٩٩٣، ص ١١٨)، ومعلوم أن الإحالة تنقسم إلى قسمين أساسيين، أولهما الإحالة المقامية ويقصد بها "إحالة عنصر لغوي إحالي على عنصر إشاري غير لغوي موجود في المقام الخارجي، كأن يحيل ضمير المتكلم المفرد على ذات صاحبه المتكلم، حيث يرتبط عنصر لغوي إحالي بعنصر إشاري غير لغوي هو ذات المتكلم" (الزناد، ١٩٩٣، ص١١٩)،

ISSN: 2706-6495

أما القسم الثاني – وهو الأهم – فهو الإحالة النصية "وهي إحالة عنصر معجمي على مقطع من الملفوظ أو النص" (الزناد، ١٩٩٣، ص ١١٩) ، ومن ثم فهي تلعب دورا أساسيا في الربط بين أجزاء النص بحيث لا يمكن للمتلقي فهم عناصرها دون العودة إلى العناصر المحال عليها، وتجدر الإشارة إلى أن هذا النوع يتفرع بدوره إلى قسمين أولهما الإحالة القبلية وهي إحالة على سابق أو إحالة بالعودة وتقوم على "استعمال كلمة أو عبارة تشير إلى كلمة أخرى أو عبارة أخرى سابقة في النص أو المحادثة" (الفقي، ٢٠٠٠، ص ٣٨) ، والثاني هو الإحالة البعدية وتقوم على "استعمال كلمة أو عبارة تشير إلى كلمة أخرى أو عبارة أخرى سوف تستعمل لاحقا في النص أو المحادثة" (الفقي، ٢٠٠٠، ص ٤٠)، ولعل أبرز أدوات الإحالة كما سبقت الإشارة هي الضمائر بأنواعها وأسماء الإشارة.

وعلى هذا الأساس سنحاول فيما يلي بحث تجليات هذا المظهر الاتساقي وذلك من خلال رصد أبرز أدواته (الضمائر وأسماء الإشارة) وبيان أثرها في تماسك الآيات موضوع الدراسة.

وقبل أن نشرع في تحديد أدوات الإحالة وبيان دورها في تماسك التعبير القرآني لابد من الإشارة إلى نقطة أساسية ستلقي بعض الضوء على تجليات هذا النوع من الاتساق، ويتعلق الأمر بالفرق بين السور المكية والمدنية؛ فمن المعروف أن الأولى تتميز بالدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وذكر القيامة والجنة والنار، ومجادلة المشركين وكذا فضح أعمالهم من سفك دماء وأكل أموال اليتامى، كما تكثر هذه السور من عرض قصص الأنبياء بينما تهدف السور المدنية إلى بيان العبادات والمعاملات والحدود والجهاد والسلم والحرب، ونظام الأسرة وقواعد الحكم ووسائل التشريع ومخاطبة أهل الكتاب ودعوتهم للإسلام.

وبما أن سورة البقرة سورة مدنية فقد اشتملت على مجموعة من المواضيع تهم جانب العبادات والمعاملات ونذكر منها موضوع الإنفاق الذي عالجته الآيات موضوع الدراسة؛ فقد بين عز وجل أهمية الإنفاق وأثره في نفوس المنفقين في سبيل الله كما صور أجره تصويرا بيانيا يكشف بما لا يدع مجالا للشك عن أهمية هذا السلوك في الدين الإسلامي.

فقد ابتدأ التعبير القرآني بتشبيه النفقة في سبيل الله بالحبة التي أنبتت سبع سنابل دليلا على المضاعفة وبين أحوال المنفقين ابتغاء مرضاة الله تعالى ثم ثنى بمشهد يخالف المشهد الأول ويتعلق الأمر بالذي ينفق أمواله رياء الناس، لينتقل بعد ذلك إلى تصوير أحوال الطرفين تصويرا بيانيا آخر لكنه يختلف عن الأول من حيث طبيعة العناصر المعتمدة في التشبيه.

ومما لا شك فيه أن للإحالة دورا أساسيا في تآخذ جمل التعبير القرآني من جهة وتماسك مجموع الآيات من جهة ثانية، فما هي إذن مظاهر الإحالة في الآيات وكيف ساهمت في تماسكها واتساقها؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه من خلال الوقوف على الأدوات الإحالية في النص وبيان دورها في ترابط أجزائه.

يلاحظ أن الإحالة النصية حاضرة في مجموع الآيات، خصوصا منها الإحالة على سابق لكون هذا العنصر أكثر انتشارا في معظم النصوص خاصة النص القرآني؛ إذ لا تخلو أي آية من ضمير متصل أو منفصل، بارز أو مستتر يعود على عنصر أساسي في النص ألا وهو المخاطب المتمثل في المؤمنين؛ فالله عز وجل يتوجه بخطابه هذا إلى فئة معينة من الناس تتجلى في المؤمنين، ويظهر ذلك بجلاء إيراده تعالى لعبارة (يا أيها الذين آمنوا) ومن ناحية ثانية فإن طبيعة المخاطب تتغير بتغير طبيعة السورة ذلك أن المكي من السور ما وقع خطابا لأهل مكة، والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة، ولأن الغالب على أهل مكة الكفر فقد خوطبوا بـ: (يا أيها الناس)،

ISSN: 2706-6495

في حين كان الغالب على أهل المدينة الإيمان فخوطبوا بـ: (يا أيها الذين آمنوا) وبما أن المخاطب الأساسي في هذه الآيات هو هذه الفئة (الذين أمنوا) فلقد كان من الضروري أن يحيل النص القرآني على هذه الفئة؛ إذ ورد ذكرها في الآية الأولى وذكرت بعدها الضمائر متأخرة عن المحال عليه، ولهذا كانت الإحالة إحالة داخلية على لفظ سبق ذكره، ونقترح الخطاطة التالية لتوضيح العلاقة بين الضمائر والعنصر المحال عليه:

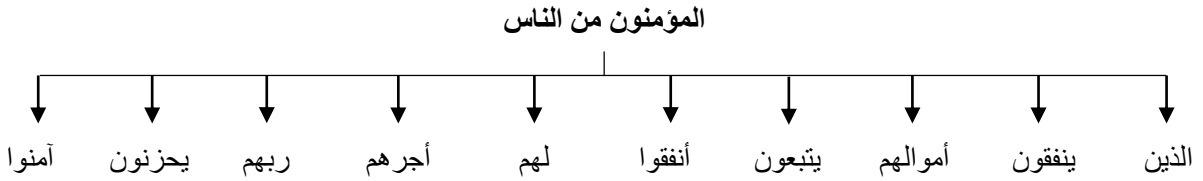

يلاحظ من خلال هذه الخطاطة أن الإحالة في هذه الآيات هي إحالة على سابق يتمثل في فئة "الذين آمنوا"، وقد تواجدت في مجموع الآيات، وتواجدها هذا دلالة واضحة على الاتساق الظاهر والتماسك النصي، هذا من جهة، ومن جهة ثانية يلاحظ أن الضمير هو أكثر العناصر الإحالية استعمالا فقد ساهم بشكل واضح في تكون نسيج النص بحيث كانت كل الضمائر سواء المتصلة أو المنفصلة عائدة على الفئة التي كانت موضع حديث خاص في الآيات. ومن خلال هذا التواجد الواسع للضمائر المحيلة على فئة المؤمنين من الناس تبين لنا ذلك الاتساق الحاصل بين الآيات رغم ورود بعضها منفصلا عن البعض الآخر.

ج. الاتساق المعجمي

ويحدث حينما تترابط وحدات النص بغير أشكال الربط النحوي والدلالي، وإنما عن طريق العلاقات القائمة بين مفردات النص وجمله ويحققها التكرار والمقابلة والتضام...

ويعد التكرار "شكلا من أشكال الاتساق المعجمي يتطلب إعادة عنصر معجمي، أو ورود مرادف له أو شبه مرادف أو عنصرا مطلقا أو اسما عاما" (خطابي،٢٠١٢، ص ٢٤)، ويحدده السجلماسي بقوله هو "إعادة اللفظ الواحد بالعدد أو بالنوع (أو المعنى الواحد بالعدد أو بالنوع) في القول مرتين فصاعدا" (االسجلماسي، ١٩٨٠، ص ٤٧٦)، وقد أشار أيضا إلى وظيفة التكرار في الربط بين أجزاء النص واصطلح على هذا النوع من التكرار "البناء" وهو مصطلح يدل دلالة واضحة على التلاحم والترابط بين أجزاء النص إذ يقول "البناء هو إعادة اللفظ الواحد بالعدد وعلى الإطلاق، المتحد المعنى كذلك مرتين فصاعدا، خشية تناسي الأول لطول العهد في القول" (االسجلماسي، ١٩٨٠، ص ٤٧٧).

يتضح من هذا القول إن القدماء كانوا على وعي تام بأهمية التكرار في تماسك البناء النصي، ومن ثم يمكن القول إن نظرتهم لهذه الظواهر اللغوية لم تكن نظرة ضيقة تقف عند حدود الجملة بل إنها كانت نظرة واسعة تبحث في أدوات تماسك البناء النصي.

والملاحظ أن ظاهرة التكرار في القرآن الكريم هي "ظاهرة لافتة للنظر (...) تستريح لوجوده النفس، ويتقبله الطبع ويحس المستمع باستجابة يدرك عمقها" (زهران، ١٩٩٣، ص ٢٧)، كما أنه يسهم في اتساق النص القرآني على المستويين الأفقي والعمودي.

ISSN: 2706-6495

وإذا عدنا إلى النص سنلاحظ بأن هناك عنصرين يتكرران بشكل ملحوظ في النص برمته، أما العنصر الأول فهو لفظ الجلالة حيث تكرر بدرجة لافتة للنظر وهي: عشر مرات، واستمرار ذكر لفظ الجلالة عبر الآيات يساهم في تماسك أجزائها، أما العنصر الثاني فهو فعل "الإنفاق" الذي تكرر بصيغ مختلفة خمس مرات في النص، ويمكن تفسير تكرار هذين العنصرين في الآيات بالنظر إلى طبيعة السورة وموضوعها؛ فسورة البقرة كما سبقت الإشارة سورة مدنية والسور المدنية كما هو معلوم تهدف إلى بيان العبادات والمعاملات، ويعد الإنفاق جزءا من هذه العبادات بمفهومها العام، ومن ثم فإن تكرار لفظ الجلالة بشكل ملحوظ يهدف إلى إثبات العبادة له تعالى دون سواه، ولما كان الإنفاق جزءا من هذه العبادات فإن التعبير القرآني نزع إلى تكرار مفردات الإنفاق بصيغ متعددة لبيان أهمية هذا السلوك في الدين الإسلامي وحث المؤمنين من الناس على العمل به ابتغاء مرضاة الله.

هذا وقد ساهم التكرار في اتساق آيات النص القرآني وتماسكها، ذلك أن انتشار لفظ الجلالة وفعل الإنفاق في ثنايا النص يساهم في تآخذ جمله من جهة وتآخذ آياته من جهة ثانية مما يجعل منه كلا موحدا، ومن أمثلة هذا التماسك أيضا هو ذكر الاسم الموصول وجملة الصلة(مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله)في بداية النص وإيرادهما مرة ثانية في الآية ٢٦٤ فكأن التعبير القرآني يذكر المتلقي بأهمية الإنفاق في سبيل الله وابتغاء مرضاته من ناحية ويوحد بين آياته وأجزائه من ناحية ثانية.

وإذا أمعنا النظر في البناء الدلالي لمجموع الآيات تبين لنا أنه يقوم على التكرار بالأساس؛ إذ بدأ بتشبيه حال النفقة في سبيل الله بالحبة التي أنبتت سبع سنابل ثم ثنى بتشبيه حال النفقة رياء الناس بالحجر الأملس، ليشبه مرة ثانية حال النفقة ابتغاء مرضاة الله بالجنة التي أصابها وابل فآتت أكلها، وفي المقابل يشبه حال النفقة رياء الناس بجنة أصابها إعصار فاحترقت.

وعليه يمكن القول إن اتساق النص ناتج عن مظهرين اثنين: أولهما التكرار المتمثل في تكرار المفردات وتكرار الصور البيانية، والثاني هو المقابلة وتظهر أشد ما تظهر في الجمع بين صورتين متناقضتين: صورة الإنفاق في سبيل الله وصورة الإنفاق رياء الناس.

٢. مظاهر الانسجام في الآيات

وكما سبق ذكره فالاتساق يهتم بالبنية السطحية الظاهرية أي الكيفية التي تترابط بها النصوص شكليا، مما يجعله تمهيدا للباحث قصد الغوص في أعماق النص والبحث في خباياه التي تساعده على التماسك من ناحية المعاني والأفكار المتواجدة فيه، وهذا ما يبحث فيه الانسجام، ومن ثم يمكن اعتبار الاتساق خطوة عملية مبدئية للوصول إلى الانسجام، هذا الأخير الذي يعد المرحلة النهائية والهدف المبتغى من دراسة النصوص دراسة لسانية، فهما بهذا وجهان لعملة واحدة.

ويقصد عادة بالانسجام العلاقات والروابط غير المتحققة لفظا، والتي تتطلب من المتلقي أن يشارك في بنائها بالاستناد إلى قدراته التأويلية وبتشغيل معلوماته ومعارفه. وبناء على هذا سنحاول فيما يلي كشف انسجام الآيات القرآنية وذلك من خلال الوقوف على ثلاثة مستويات أساسية: المستوى الدلالي، المستوى التداولي، المستوى البلاغي.

ISSN: 2706-6495

أ. المستوى الدلالي

سيتركز عملنا في هذا المستوى على عنصرين اثنين أولهما "موضوع الخطاب"، ويقصد بموضوع الخطاب "بنية دلالية تصب فيها مجموعة من الآيات بتضافر مستمر عبر متواليات قد تطول أو تقصر حسب ما يتطلبه الخطاب من إيجاز وإطناب، أو شرح وتمطيط...الخ" (خطابي، ٢٠١٢، ص ١٨٠).

وعليه يبدو أن موضوع الآيات هو "أهمية الإنفاق في الدين الإسلامي" إذ يدعو سبحانه وتعالى المؤمنين من الناس إلى إنفاق الأموال في سبيله وابتغاء مرضاته لما في ذلك من أجر وثواب، كما أنه يدعو هذه الفئة (المؤمنين) إلى تجنب الاعتداد بالنفقة وتقديمها رياء الناس لا في سبيل الله لما في ذلك من إبطال لهذا العمل. وقد استعان التعبير القرآني بمجموعة من المشاهد البيانية لإظهار التفاوت بين من ينفق ماله ابتغاء مرضاة الله وبين من ينفق ماله رياء الناس، حيث وظف صورة الحبة والجنة لوصف مضاعفة أجر الإنفاق في سبيله ووظف صورة الحجر الأملس لبيان عدم الانتفاع من الصدقة وغياب الفائدة.

ويظهر موضوع الإنفاق انطلاقا من جملة البداية (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله) مما يجعل من هذه الجملة جملة محورية في هذه الآيات ويجعل العمق واحدا مما يؤدي إلى تماسك النص تماسكا عضويا، إذ تأخذ بنية النص من هذه الجملة المحورية نقطة انطلاق تناسل النص ونموه، فتتولد عن هذا المحور أحيانا أبنية فرعية متوازية أو متجاورة تقوم في عمقها على تحقيق غاية واحدة، وعليه يمكن تقسيم النص إلى محورين اثنين تبعا لهذه الجملة التي وردت على رأس كل محور، وقد تفرعت عن الأولى صورتان متوازيتان تتمثل الأولى في صورة الحبة والثانية في صورة الصفوان والأمر نفسه بالنسبة للجملة الثانية (مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله) فالصورة الأولى هي صورة الجنة التي أصابها الوابل، والثانية هي صورة الجنة التي أصابها إعصار فاحترقت، وعن كل صورة من هذه الصور الكلية تفرعت مجموعة من الصور الجزئية التي تزيد المشهد بيانا وإيضاحا، وبهذا التدرج ينمو النص ويتولد بعضه من بعض إلى نهايته.

أما فيما يخص العنصر الثاني، فستتجه العناية فيه إلى وصف البناء الدلالي للآيات، ويتعلق الأمر بالعلاقات القائمة بين الآيات سواء أكانت هذه الأخيرة متجاورة أم متباعدة، وهي "علاقات تتجاوز النظر إلى الارتباط الشكلي إلى ما هو أعمق" (خطابي، ٢٠١٢، ص ١٨٧).

من هذا المنطلق يمكن تفسير البناء الدلالي للمقطع القرآني، بحيث إن العلاقة بين الآيتين الأولى والثانية هي علاقة بيان وتفسير؛ إذ لما خشي التعبير القرآني غموض الصورة لدى المتلقي لجأ إلى تفسير النفقة في سبيل الله وكذا أجرها عنده تعالى، وكذلك الأمر بالنسبة للآية ٢٦٢ (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى. والله غني حليم) بحيث إنها تأكيد لما جاء في الآية السالفة من حكمة الإنفاق والبذل، إذ تهدف إلى إظهار التفاوت بين الرد الجميل والصدقة التي يتبعها الأذى ومن ثم فهي تشترك مع الآية الثانية في دعوة المؤمنين من الناس إلى عدم إبطال صدقاتهم بالمن والأذى، ذلك أن "الصدقة التي يتبعها الأذى لا ضرورة لها! وأولى منها كلمة طيبة وشعور سمح. كلمة طيبة تضمد جراح القلوب، وتفعمها بالرضى والبشاشة. (...) فالقول المعروف والمغفرة في هذه الحالة يؤديان الوظيفة الأولى للصدقة: من تهذيب النفوس وتأليف القلوب" (قطب، ٢٠٠٣، ص ٣٠٨)، وقد زاد التعبير القرآني الأمر بيانا ووضوحا بأن شبه إبطال الصدقة بالمن والأذى بالحجر الذي أصابه المطر فتركه صلدا أي تركه أجرد نقيا دلالة على غياب الفائدة،

ISSN: 2706-6495

إنه مشهد كامل مؤلف من "منظرين متقابلين شكلا ووضعا وثمرة، وفي كل منظر جزئيات، يتسق بعضها مع البعض من ناحية فن الرسم وفن العرض، ويتسق كذلك مع ما يمثله من المشاعر والمعاني التي رسم المنظر كله لتمثيلها وتشخيصها وإحيائها" (قطب، ٢٠٠٣، ص ٣٠٨).

وقد اتصلت هذه الآيات بالآية ٢٦٤ اتصالا وثيقا على سبيل الشرح والتفسير فقوله تعالى (وتثبيتا من أنفسهم) يكشف عن جانب من جوانب الإنفاق في سبيله تعالى وابتغاء مرضاته، ويتمثل في جهاد النفس إذ المقصود من هذه الجملة هو أن بذل المال "أشق شيء على النفس على سائر العبادات الشاقة وعلى الإيمان، لأن النفس إذا رضيت بالتحامل عليها ذلت خاضعة لصاحبها، وقل طمعها في اتباعه لشهواتها، وبالعكس، فكان إنفاق المال تثبيتا لها على الإيمان واليقين" (الزمخشري، ٢٠٠٦، ص ٣٠٨)، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن تشبيهه تعالى لحال المنفقين بالجنة وتشبيهه للنفقة بالوابل والطل دليل على المضاعفة، ذلك أن "نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة – بعد أن يطلب بها وجه الله ويبذل فيها الوسع – زاكية عند الله، زائدة في زلفاهم وحسن حالهم عنده" (الزمخشري، ٢٠٠٦، ص ٣٠٩)، ولما كان المشهد "مجالا للبصر والبصيرة من جانب، ومرد الأمر فيه كذلك إلى رؤية الله ومعرفته بما وراء الظواهر، جاء التعليق لمسة للقلوب: (والله بما تعملون بصير)" (قطب، ٢٠٠٣، ص ٣٠٨)، وعليه يمكن القول إن هذه الآية شرح وتفسير للمعنى الوارد في الآية الأولى بحيث بينت بشكل واضح معنى الإنفاق في سبيل الله وكذا أجره المضاعف عنده تعالى، هذا وقد ارتبطت هذه الآية بالآية الأخيرة من النص ارتباط بيان وإيضاح عن طريق المقابلة إذ جاءت هذه الأخيرة بصورة جنة أصابها إعصار فاحترقت وهي تمثيل لمن يعمل الأعمال الحسنة ولا يبتغي بها وجه الله "فإذا كان يوم القيامة وجدها محبطة، فيتحسر عند ذلك حسرة من كانت له جنة من أبهى الجنان (...) فهلكت بالصاعقة" (الزمخشري، ٢٠٠٦، ص ٣٠٩).

نخلص مما سلف إلى أن النص ينهض على المقارنة غير المصرح بها، بين من ينفق ماله في سبيل الله وابتغاء مرضاته وبين من ينفق ماله رياء الناس ولا يبتغي بها وجه الله تعالى، ولعل هذا ما يفسر المقابلة التي انبنت عليها الآيات، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية يبدو أن علاقة البيان والإيضاح هي الخيط الناظم لمجموع الآيات، بحيث يوضح اللاحق منها السابق مما جعل النص متآخذ الأطراف متماسكها، وفي نهاية الأمر جعله كل ذلك منسجما حيث إن هذا الانسجام والتناسق "لا يقف عند المشاهد فرادى، بل إنه ليمد رواقه فيشمل المشاهد مجتمعة من بدئها إلى منتهاها" (قطب، ٢٠٠٣، ص ٣٢٠).

ب. المستوى التداولي

ستتجه العناية في هذا المستوى إلى جانبين؛ الأول السياق وخصائصه لنرى دوره في التأويل، والثاني البنية الخطابية للنص أي الوقوف على عناصر العملية التواصلية وبيان العلاقات فيما بينها.

يعد السياق من العناصر التداولية المهمة في دراسة انسجام النص القرآني، وهو "إطار عام تنتظم فيه عناصر النص ووحداته اللغوية ومقياس تتصل بواسطته الجمل فيما بينها وتترابط، وبيئة لغوية وتداولية، ترعى مجموع العناصر المعرفية التي يقدمها النص للقارئ" (بودرع، ٢٠٠٧، ص ٧٣).

ولما كان السياق من العناصر المهمة في دراسة النص فقد حظي باهتمام بالغ من قبل الدارسين قديما وحديثا واستعانوا به في فهم النصوص، وعليه سنحاول فيما يلي الوقوف على سياق الآيات وبيان أثره في فهم مضامينها وتأويل دلالاتها.

ISSN: 2706-6495

وقبل أن نشرع في تسليط الضوء على عناصر سياق الآيات لابد من الإشارة إلى أن السياق القرآني أنواع، فهناك سياق السورة الذي يشكل وحدة عضوية متكاملة متتامة، وسياق المقطع الذي يشكل محورا رئيسيا من محاور سياق السورة، وسياق الآية الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بسياق المقطع، حيث يشكل سياق الآية لبنة في بناء سياق المقطع، وتتحد مباني الآيات حول معاني مقطعها، ويشكل المقطع عضوا أساسيا في السورة، حيث تدور جميع المقاطع حول فلك السورة الواحدة ألا وهو موضوعها (محمود، ٢٠٠٨، ص ٧٧).

يفهم من هذا الذي تقدم أن هناك سياقين أساسيين أولهما سياق السورة والثاني سياق المقطع، ولا يمكن الوقوف على الثاني دون الإشارة إلى السياق الذي جاءت فيه السورة، إذ "من الخطأ البحث في تلك الصلات الجزئية مع غض النظر عن النظام الكلي الذي وقعت عليه السور، ففي هذا الغض جور عن القصد" (بودرع، في لسانيات النص وتحليل الخطاب، ٢٠١٣، ص ٦٦).

مبدئيا ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار أن سورة البقرة من أوائل ما نزل من السور بعد الهجرة، وهي أطول سور القرآن على الإطلاق وتضم عدة موضوعات، وقد نزلت هذه السورة لتحقيق غرض عظيم إذ بالتأمل في مجموع موضوعاتها يظهر أن غرضها العام هو: إعداد الأمة للخلافة وتكليفها بالشريعة وتبليغها بعد تخلي بني إسرائيل عنها.

يرى صاحب "الظلال" في تحديده لسياق سورة البقرة أن هناك محورا واحدا يجمعها كلها "محور واحد مزدوج يترابط الخطان فيه ترابطا شديدا (...) فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة واستقبالهم لها ومواجهتهم لرسولها صلى الله عليه وسلم وللجماعة المسلمة في أول نشأتها، وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض" (قطب، ٢٠٠٣، ص ٢٨).

وإذا أمعنا النظر في السورة برمتها تبين لنا بأنها تشمل موضوعات مختلفة الشرائع، وبينت بشكل واضح تعاليم الدين الإسلامي لأجل إعداد الجماعة المسلمة وتهيئتها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض، ومن ثم كانت هذه السورة رغم وحدة غرضها جامعة للمعاني المختلفة والمواضيع المتباعدة، وهي سمة من سمات القرآن الكريم إذ كثيرا ما "ألف بين المعاني المختلفة في السورة الواحدة وألقى بينها تداعيا معنويا ونظميا" (بودرع، في لسانيات النص وتحليل الخطاب، ٢٠١٣، ص ٦٧)، وقد ضرب الأستاذ محمد الدراز مثلا بسورة البقرة، فهي سورة على طولها تتألف وحدتها من مقدمة وأربعة مقاصد وخاتمة نقترح أن نوردها في الجدول التالي:

بنية سورة البقرة	
مقدمة	التعريف بشأن القرآن الكريم
المقصد الأول	دعوة الناس إلى الإسلام
المقصد الثاني	دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة
المقصد الثالث	عرض شرائع الدين الإسلامي

ISSN: 2706-6495

المقصد الرابع	ذكر الوازع والنازع الديني
خاتمة	التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة

يلاحظ من خلال هذا الجدول أن هناك سياقات متعددة، وبالنظر إلى موضوع المقطع (الإنفاق) يبدو أنه جاء في سياق عرض شرائع الدين الإسلامي عامة وإقامة قواعد النظام الاقتصادي الاجتماعي الذي يريد الإسلام أن يقوم عليه المجتمع المسلم خاصة.

ويتجلى هذا النظام في التكافل والتعاون المتمثل في الزكاة المفروضة والصدقات المتروكة للتطوع، بخلاف النظام الربوي الذي كان سائدا في فترة الجاهلية، وقد بين التعبير القرآني آداب الصدقة وأهميتها في الإسلام وكذا أجر المنفقين في سبيل الله وابتغاء مرضاته، كل هذه الأمور تشكل في مجموعها جانبا أساسيا من نظام الاقتصاد الإسلامي والحياة الاجتماعية التي تقوم عليها، إذ نجد في هذا الدرس "الحديث عن تكليف البذل والإنفاق، ودستور الصدقة والتكافل. والإنفاق في سبيل الله هو صنو الجهاد الذي فرضه الله على الأمة المسلمة (...) إذ يرسم هذا السياق دستور الصدقة في تفصيل وإسهاب. يرسم هذا الدستور مظللا بظلال حبيبة أليفة، ويبين آدابها النفسية والاجتماعية، الآداب التي تحول الصدقة عملا تهذيبيا لنفس معطيها وعملا نافعا مربحا لآخذيها، وتحول المجتمع عن طريقها إلى أسرة يسودها التعاون والتكافل، وترفع البشرية إلى مستوى كريم: المعطي فيه والآخذ على السواء" (قطب، ٢٠٠٣، ص ٣٠٤).

وبهذا يظهر أن المقطع جاء في سياق توجيهات الدين الإسلامي للجماعة المسلمة وإعدادها لحمل أمانة الخلافة في الأرض، بحيث يمكن اعتباره درسا لهذه الفئة من الناس يحمل في طياته دعوة إلى الإنفاق والبذل، مستندا في ذلك على مجموعة من الصور البيانية ذات وظيفة حجاجية بالأساس لأنه كانت هناك "نفوس شحيحة ضنينة بالمال تحتاج إلى هذه الإيقاعات القوية، والإيحاءات المؤثرة، كما تحتاج إلى ضرب الأمثال، وتصوير الحقائق في مشاهد ناطقة تبلغ الأعماق" (قطب، ٢٠٠٣، ص ٣٠٤).

وعلى ضوء هذه المعطيات السياقية نتبين البنية الخطابية للمقطع القرآني، وتجدر الإشارة هنا إلى أن البنية الخطابية في القرآن الكريم مكونة من مرسل هو الله عز وجل، ومتلق أول للرسالة وهو جبريل عليه السلام ومتلق ثان هو الرسول صلى الله عليه وسلم، ومتلق ثالث وهو صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن جاء بعدهم من البشر إلى أن تقوم الساعة.

وعليه فالقرآن الكريم "رسالة إلى البشرية جمعاء، منذ بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فالبث من هذا الاعتبار متصل على الوجه الأبد (...)، مما يجعل هذه العلاقة ترقى إلى ما فوق الزمنية التاريخية والتاريخانية" (مرتاض، ٢٠٠١، ص ٧).

وإذا عدنا إلى المقطع سنجد بأن الكلام منصب على المتلقي بالأساس ويتمثل في الجماعة المسلمة، إذ يتوجه تعالى بكلامه إلى هذه الفئة قصد إعدادها لحمل أمانة الخلافة في الأرض وبناء مجتمع مسلم يقوم على التكافل والتعاون بين أفراده عن طريق الزكاة المفروضة والصدقات المتروكة للتطوع:

ISSN: 2706-6495

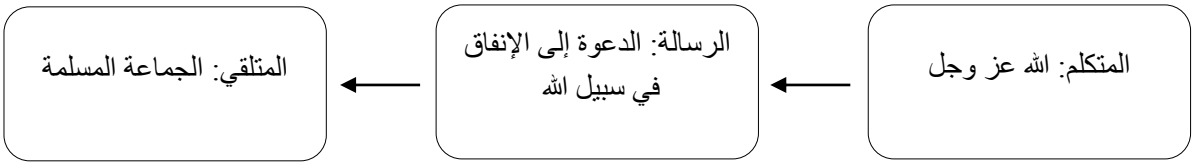

ومن ثم فإن فعل الكلام في السورة يهدف إلى الإقناع بأسلوب يخاطب العقل والقلب معا، بحيث تعددت الصور البيانية واختلفت تبعا لطبيعة المتلقي، ذلك أن التعبير القرآني موجه إلى مخاطب عام يتمثل في الجماعة المسلمة ومخاطب خاص وهو متعدد؛ فهناك المنفقون في سبيل الله وابتغاء مرضاته وهم الذين يجودون بأموالهم سرا وعلانية في إخلاص ونقاء، وهناك من يتبع النفقة بالمن والأذى، وهناك من ينفق المال كارها أو مرائيا، وهناك من يضن بالمال فلا يعطيه إلا بالربا، ويمكن توضيح ذلك في الخطاطة التالية:

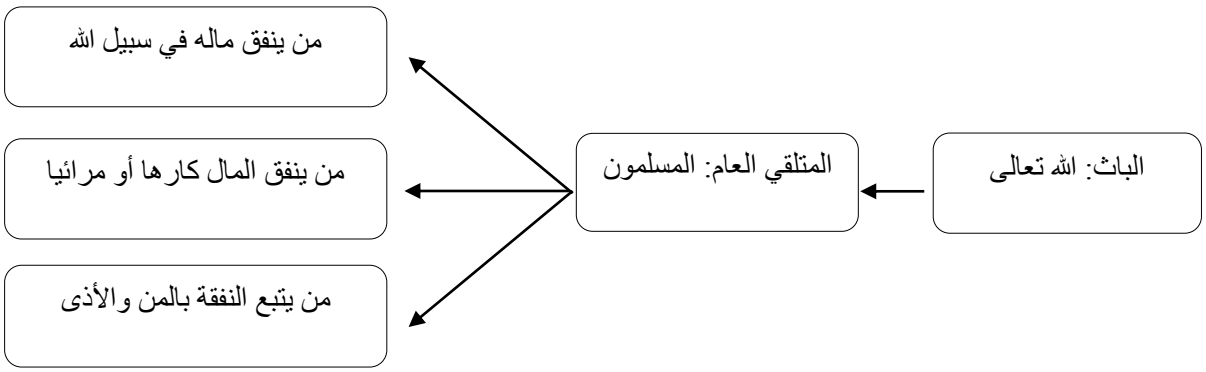

وانطلاقا مما سبق يمكن القول إن وظيفة المقطع القرآني هي وظيفة توجيهية بالأساس تقوم على الحض والتأليف من جهة وعلى النهي من جهة ثانية، والخطاب في هذه الحالة لا يبدأ بالفرض والتكليف وإنما يبدأ بالحض والتأليف، ويتمثل ذلك في عرض صورة الزرع الذي يمثل الحياة النابضة النامية والمعطية كما يظهر أيضا في صورة جنة بربوة عالية إذا أصابها وابل تشربت منه وازدادت خصوبة و"إذا لم يصبها لا تظمأ لأنها ترتضع من ثدي آخر، هو قطر الندى بسحره ونقائه... فهي مخصبة في كل حال، نامية أبدا" (موسى، ١٩٩٣، ص ١١٦).

ومن ناحية ثانية فقد جاء الخطاب بصيغ النهي من الخالق إلى المخلوق: (لا تبطلوا) ذلك أن هذه الجماعة المسلمة كان فيها بعض الضعف والنقص الذي يستدعي مجموعة من التوجيهات والإيحاءات المستمرة، وبهذا تظهر طبيعة الخطاب القرآني ووظيفته "فهو كائن حي متحرك (...) يعمل ويتحرك في وسط الجماعة المسلمة، ويواجه حالات واقعة فيدفع هذه ويقر هذه، ويدفع الجماعة المسلمة ويوجهها، فهو في عمل دائب، وفي حركة دائبة (قطب، ٢٠٠٣، ص ٣٠٤).

يتأكد مما سبق أن العلاقة التداولية لبنية الخطاب، تؤدي إلى تكوين نسيج النص لتسهم بذلك في انسجام الخطاب القرآني في هذا المقطع، ومن ثم وتأسيسا على هذا يسهل إلى حد ما فهم مضامين المقطع ودلالاته وكذا تحليل تشبيهاته وبيان أبعادها الجمالية والحجاجية،

ISSN: 2706-6495

لذا نتساءل الآن: إلى أي حد ستسعفنا المعطيات التداولية في تحليل الصور البيانية التي تقوم عليها الآيات؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في المستوى الثالث والأخير من دراستنا للانسجام في الآيات ويتعلق الأمر بالمستوى البلاغي.

ج. المستوى البلاغي

تنبع ضرورة هذا المستوى الوصفي / التحليلي من الطبيعة الخاصة للخطاب القرآني الذي ندرسه؛ إذ هو خطاب بياني بالأساس ينزع إلى توظيف الاستعمالات البيانية بوجه عام والتشبيه بوجه خاص، بهدف تقريب المعنى من ذهن المتلقي من جهة وإقناعه من جهة ثانية، فمن المعروف أن التشبيه يقوم على الجمع بين "مشهدين" يتفقان في وجوه كثيرة تلتقي كلها لتكون وجها واحدا قصد الإعلام والإخبار، وهي الوظيفة الرئيسية للكلام بشكل عام، والتأثير والإقناع هي الوظيفة الرئيسية للخطاب القرآني بشكل خاص.

لكن هذا لا يعني أن هذا المستوى هو ما يخصص الخطاب القرآني، بل إنه سمة بارزة من سماته أي أن أنواع الخطاب توظف التشبيه والمجاز والاستعارة...الخ ولكن درجة وقوة توظيفها تختلف من هذا إلى ذاك. وفي جميع أنواع الخطاب يظل الخطاب القرآني أشدها توظيفا للاستعمالات البلاغية خاصة التشبيه، لمقاصد وأغراض متعددة يرتبط بعضها بما هو جمالي وبعضها الآخر بما هو حجاجي.

وعليه فإذا أردنا أن نقف عند بعض الآليات البلاغية الموظفة في المقطع فلن نجد سوى ما سماه البلاغيون ب"التشبيه التمثيل"، ويقصد عادة بالتشبيه التمثيل ذلك التشبيه الذي "يقوم على التعدد في وجه الشبه. فهو تشبيه مركب بمركب وكل طرف هيأة حاصلة من أمور يحسن تشبيه كل جزء من أجزاء أحد الطرفين بما يقابله من الطرف الآخر. ويقتضي التعدد فيه طولا في التركيب قصد استيفاء العناصر المكونة للصورة" (الزناد، دروس البلاغة العربية نحو رؤية جديدة، ١٩٩٢، ص ٢٥).

وبناء على هذا سنحاول فيما يلي الوقوف على مظاهر التشبيه التمثيل في المقطع وبيان العلاقات القائمة بين صوره وكذا دورها في تحقيق انسجام الآيات.

يلاحظ أن المقطع القرآني يقوم على أربعة تشبيهات أساسية ثلاثة منها تندرج ضمن التشبيه التمثيل والرابع يدخل في خانة التشبيه الضمني، ونعني به ذلك "التركيب الذي يعقد فيه الشبه بين الطرفين عن طريق التلميح دون التصريح، فهو تشبيه مضمر في النفس" (الزناد، دروس البلاغة العربية نحو رؤية جديدة، ١٩٩٢، ص ٣٥).

<u>التشبيه الأول</u>

يشبه التعبير القرآني النفقة في سبيل الله بالحبة التي تلقى في التربة الطيبة فتنبت سبع سنابل، "ثم إن هذه السنابل لطيبها وطيب معدن أرضها نراها مليئة بالحب ففي كل سنبلة مئة حب" (موسى، ١٩٩٣، ص ١١٠)، وبين المشهدين شبه يتجسم في مظاهر كثيرة يمكن النظر إليها في مستويين اثنين، مستوى قريب يتمثل في المضاعفة إذ يضاعف الله تعالى أجر المنفقين في سبيله وابتغاء مرضاته بقدر الزرع الذي يعطي أضعاف ما يأخذه، و"يهب غلاته مضاعفة بالقياس إلى بذوره" (قطب، ٢٠٠٣، ص ٣٠٦)، بحيث بين تعالى أهمية الإنفاق في سبيله وكذا أجر هذا العمل الطيب، وقد استعان التعبير القرآني بالسنابل نظرا لأهميتها إذ هي غذاء الأحياء وما به قوام حياتهم ومن ثم فإن الإنفاق في سبيله وابتغاء مرضاته كهذه السنابل، ذلك أنه إذا كانت السنابل قوام حياة الإنسان في جانبها المادي فإن الإنفاق ابتغاء مرضاة الله قوام حياة الإنسان في جانبها الروحي؛

ISSN: 2706-6495

فهو تهذيب وتزكية وتطهير لنفس المعطي، وبهذا يصور تعالى مشهد الطبيعة الحية والحياة النامية التي تدفع الناس إلى الإنفاق فهذا المشهد يتجه بالضمير البشري إلى البذل والعطاء.

ويتمثل المستوى البعيد لتشبيه الإنفاق في سبيل الله بالحبة التي أنبتت سبع سنابل في كونه تصوير للخصوبة الماثلة في قلوب المؤمنين "التي أخصبتها صلتها بالله تعالى، فصارت معادن الخير وينابيع تثري حياة الإنسان بكل معنى جميل هو عماد الحياة الإنسانية في مجالها الروحي" (موسى، ١٩٩٣، ص ١١١).

ومما تجب الإشارة إليه هنا هو مراعاة التعبير القرآني "لمبدأ القرب" عند المتلقي بحيث يصور حال المنفقين في سبيل الله وابتغاء مرضاته بالاعتماد على عناصر واضحة لدى المتلقي، ولها أهمية بالغة في ثقافته وحقله المعرفي إذ الزرع هو رمز الحياة النابضة النامية المعطية الواهبة.

التشبيه الثاني

يشبه التعبير القرآني في التشبيه الثاني نفقة الذي ينفق ماله لغير وجه الله تعالى بحجر أملس عليه تراب فسقط عليه المطر فأزال ترابه ليتركه أجرد نقيا دون أن ينتفع بهذا المطر.

والجامع بين المشبه (النفقة لغير وجه الله وإنما رياء الناس) والمشبه به (الحجر الذي أصابه الوابل) هو غياب الفائدة وعدم الانتفاع، فصاحب المال ضاع منه ماله من غير فائدة بحيث "لم يثمر خيرا ولم يعقب فائدة" (قطب، ٢٠٠٣، ص ٣٠٩)، وكذلك الحجر فقد انحدر عنه الماء دون أن ينبت عليه نباتا علما أن الماء مصدر النفع والخير بل إنه قوام الحياة كلها.

ومن الممكن جدا أن يكون التعبير القرآني قد أراد من خلال هذا التشبيه وصف قلب المنافق، وغفلته، وموته وخلوه من الحس بمعاني الخير والحياة و"أنه وإن صب عليه ماء الحياة صبا فلا يزداد إلا صلودا وغفلة" (موسى، ١٩٩٣، ص ١١٢)، ومن جهة ثانية فإن ذلك التراب ما هو إلا تلك الغلالة الرقيقة التي توارت خلفها حقيقة نفسه، ومن ثم فالتراب هو ذلك "القناع الزائف الذي تقنع به وهو لم يلبث أمام الوابل" (موسى، ١٩٩٣، ص ١١٢) إذ سرعان ما ظهرت حقيقة نفسه وتبين أن غرضه من الإنفاق هو إشعار الآخر بضعفه ونقصه تجاهه، لأنه يريد من الآخذ للصدقة أن يشعر دائما بأنه صاحب الفضل عليه.

التشبيه الثالث

وفي مقابل الصورة السابقة يشبه التعبير القرآني النفقة ابتغاء مرضاة الله بجنة بربوة عالية، إذا أصابها وابل تشربت منه ما تزداد به خصوبة، وإذا لم يصبها الوابل أصابها الطل، وهذا يعني أنها في كلتا الحالتين لا تظمأ وإنما هي مخصبة في كل حال، وهذا هو الجامع بين الطرفين ويشترك هذا التشبيه والتشبيهات السابقة في كونها تصف بطريقة ضمنية قلوب المنفقين؛ فما تلك الربوة إلا قلب المؤمن المرتفع عن الدنايا "فالقلوب المؤمنة بالله ورسالة الخير إذا لم تثر الحياة الإنسانية بما يحييها حياة صحيحة ويخصبها خصوبة ظاهرة كان ذلك نقصا في حقيقتها" (موسى، ١٩٩٣، ص ١١٣)، وبهذا تظهر أن العلاقة بين التشبيه الثاني والثالث هي علاقة تقابل، تتمثل في الجمع بين صورة القلوب الميتة التي يطبعها الكفر والنفاق والقلوب الحية الطيبة العامرة بالخير،

ISSN: 2706-6495

وعلى هذا الأساس نتبين الفرق بين المشهدين إذ "هناك صلادة وموت وهنا حياة ممرعة زاهية تمدها الأرض والسماء" (موسى، ١٩٩٣، ص ١١٤)، فالقرآن يشبه القلوب القائمة على الإيمان بالحياة في حين يشبه القلوب القائمة على الكفر والنفاق بالموت، وهكذا يؤلف التعبير القرآني بين الصور المتباعدة ويقرن بين المعاني المتعارضة.

التشبيه الرابع

يختلف التشبيه الأخير عن التشبيهات السابقة من حيث الأسلوب بحيث لم يأت في أسلوب التشبيه وصياغاته المعروفة وإنما جاء في صيغة سؤال: أيود أحدكم أن يكون صاحب هذه الجنة – أو هذه الحسنة – فيتبعها المن والأذى فيمحقها محقا كما يمحق إعصار جنة؟

والملاحظ أن المشبه في هذه الحالة هو صاحب الأعمال الذي يكون شديد الحاجة إليها يوم القيامة بينما يتمثل المشبه به في صاحب جنة عظيمة موصوفة بكثرة نخيلها وأعنابها وتنوع ثمارها، لكن صاحبها ضعف وشاخ وعجز عن إنقاذها من الاحتراق وهو في أشد ساعاته حاجة إلى ظلها ونعمها، فالمشبه به هنا عبارة عن مشهد مؤلف من مجموعة من الصور التي تلخص قصة هذا الرجل إذ كان في البداية غنيا بقوته وجنته لينتهي بذلك إلى حالة الضعف والفقر واحتراق الجنة.

وعليه يمكن القول إن القصد من إيراد هذه القصة هو حث المؤمنين من الناس على الإنفاق ابتغاء مرضاة الله وأن تكون أعمالهم خالصة لوجهه تعالى دون غيره، ولعل ما يؤكد هذا الذي ذهبنا إليه هو الاستفهام الذي انبنت عليه القصة، فالمسؤول في هذه الحالة غير محدد "فهو كل فرد من أفراد الإنسان يبحث في نفسه عن جواب هذا السؤال ويحدد موقفه من الأعمال التي يعملها في محيط البر، وأن يجتهد في أن تكون خالصة خلوصا كاملا لله، ليس لغيره فيها شائبة" (موسى، ١٩٩٣، ص ١١٥).

ومن البين أن هناك انسجاما بين التشبيهات الأربعة سواء على مستوى البناء الفني أو الغرض، بحيث قامت على الجمع بين مشهدين اثنين بهدف تصوير قلوب المنفقين في سبيل الله من جهة وقلوب المنفقين رياء الناس من جهة ثانية مستندة في ذلك على عناصر الطبيعة المتمثلة في: السنبلة، الحبة، الوابل، الطل، الجنة...الخ، وفي معرض هذا القول لا يسعنا إلا أن نلاحظ أن التشبيهات الأربعة عرضت في محيط متجانس "محيط زراعي! حبة أنبتت سبع سنابل. صفوان عليه تراب فأصابه الوابل، جنة بربوة فآتت أكلها ضعفين، جنة من نخيل وأعناب... حتى الوابل والطل والإعصار التي تكمل محيط الزراعة لم يخل منها محيط العرض الفني المثير" (قطب، ٢٠٠٣، ص ٣١٠)، وهكذا تتصل أجزاء المقطع وتتعالق تشبيهاته لتكَوِّنَ مشهدا واحدا منسجما.

نتائج البحث

وبعد هذا يمكن أن نشير إلى ما يمكن اعتباره "نتائج" تمخض عنها هذا المقال:

- قد أسهمت أدوات عدة في التماسك الشكلي للمقطع على رأسها العطف خاصة بالواو، ذلك أن النص عبارة عن جمل ومتتاليات متعاقبة خطيا ولكي تدرك كوحدة متماسكة تحتاج إلى عناصر رابطة ومن ثمة اضطلعت الواو بوظيفة الربط بين الجمل.

ISSN: 2706-6495

- من الأدوات التي ساهمت في اتساق النص الإحالة القبلية وذلك عن طريق الضمائر وأسماء الإشارة بحيث كانت هناك نقطة مركزية في المقطع تعلقت بها كل مكونات النص، بالإضافة إلى التكرار الذي يعد من أهم أدوات الاتساق المعجمي التي ساهمت في التماسك النصي للمقطع.
- تلعب العلاقات الدلالية بين الآيات دورا مهما في التماسك الدلالي للنص ذلك أن كل آية تتصل بالتي قبلها على سبيل علاقة دلالية معينة: التأكيد، الإجمال / التفصيل، البيان والإيضاح...
- إن كشف انسجام النص القرآني يتطلب الوقوف على ثلاثة عناصر أساسية أولها السياق وخصائصه والثاني هو البنية الخطابية، ثم الأدوات البيانية الموظفة ووظيفتها.
- إن تحديد سياق النص القرآني يتطلب الوقوف على مجموعة من العناصر على رأسها طبيعة السورة (مكية، مدنية)، وأسباب النزول ثم الغرض العام والمحور الرئيسي الذي تدور حوله كل السورة.
- إن الحديث عن السياق في النص القرآني يتطلب الوقوف على ثلاثة أنواع من السياق: سياق السورة، سياق المقطع وسياق الآية.

خلاصة

نخلص من كل هذا الذي تقدم إلى أن المقطع القرآني مقطع متماسك الأطراف ومتآخذ الأجزاء بحيث ساهمت مجموعة من الأدوات في اتساقه الشكلي من ناحية وفي انسجامه الموضوعاتي والدلالي من ناحية ثانية، ذلك أن النص يزخر بالعديد من الأدوات والآليات التي تشد أجزاءه وتربط آياته ومعاني جمله. وما يقال في هذا المقطع يقال في كل المقاطع القرآنية بل في كل سورة من سور القرآن الكريم، فلكل سورة وحدة موضوعية تشد أجزاءها وتربط آياتها ومعاني جملها، و"ما اشتملت عليه السورة من معان جزئية إنما هو مشتق من الموضوع الكلي للسورة أو موصول به بوجه من الوجوه" (بودرع، في لسانيات النص وتحليل الخطاب، ٢٠١٣، ص ٦٩).

لائحة المصادر والمراجع

- مصطفى حميدة، نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧؛
- الأزهر الزناد، نسيج النص: بحث فيما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣؛
- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، دار المدني، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢؛
- الزمخشري، الكشاف، تحقيق محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٦؛
- صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠؛
- محمد خطابي، لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠١٢؛
- السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تحقيق علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، الطبعة الأولى، ١٩٨٠؛
- البدراوي زهران، ظواهر قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية بين القدماء والمحدثين، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٣؛

ISSN: 2706-6495

- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الشرعية الثانية والثلاثون، ٢٠٠٣؛
- عبد الرحمان بودرع، أثر السياق في فهم النص القرآني، الإحياء، العدد الخامس والعشرون، يوليوز، ٢٠٠٧؛
- المثنى عبد الفتاح محمود، نظرية السياق القرآني: دراسة تأصيلية دلالية نقدية، دار وائل للنشر، عمان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨؛
- عبد الرحمان بودرع، في لسانيات النص وتحليل الخطاب نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم، بحيث مقدم للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية، ٢٠١٣؛
- عبد الملك مرتاض، نظام الخطاب القرآني: تحليل سيميائي مركب لسورة الرحمان، دار هومة، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠٠١؛
- محمد أبو موسى، التصوير البياني: دراسة تحليلية لمسائل البيان، مكتبة وهبة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣؛
- الأزهر الزناد، دروس البلاغة العربية نحو رؤية جديدة، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢؛

جميع الحقوق محفوظة 2020 ©، الباحث منير بورد، المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي.

(CC BY NC)